

المبحث الثالث

عثمان بن عفان الخليفة الثالث

● العهد إلى ستة

لم يُوصَ عمر بن الخطاب لأحد بالخلافة من بعده اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ . وقد طلب منه وهو على فراش الموت أن يستخلف ، فقال « أَتَحْمَلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ حَظِي مِنْهَا الْكَفَافُ ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي ! فَإِنْ أَسْتَخْلَفَ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي (يعني أبا بكر) ، وَإِنْ أَتْرَكُكُمْ فَقَدْ تَرَكُكُمْ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » . (١)

واجتهد عمر في المسألة ، فهداه اجتهاده إلى العهد إلى ستة من كبار الصحابة ، وقال : « قد رأيتُ من أصحابي حرصاً سيئاً ، وإنِّي جاعلٌ هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ » . (٢) وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال لابيهِ : « إنِّي سمعتُ الناس يقولون مقالةً ، فَالَيْتُ أَنْ أَقُولَهَا لَكُمْ . زَعَمُوا أَنَّكَ غَيْرُ مُسْتَخْلَفٍ . فَوَضِعَ (عمر) رأسه ساعة ، ثُمَّ رَفَعَهُ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْفَظُ دِينَهُ . وَإِنِّي إِنْ لَا أَسْتَخْلَفُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَسْتَخْلَفْ . وَإِنْ أَسْتَخْلَفُ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ اسْتَخْلَفَ » . قال (ابن عمر) : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُعَدِّلُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا ، أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَخْلَفٍ » . (٣)

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « مات رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ الاستخلاف وتركه ؛ ج ١٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٢) الفتح الرباني ؛ رقم ٢٠٢ - ج ٢٣ - ص ٩١

(٣) نفسه ؛ رقم ٢٠١ ج ٢٣ ص ٩٠ - ٩١

ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً ، ولا أوصى بشيء» . (١) فلم يوص عمر اتباعاً
للنبي ﷺ ، وهو المتهم من غلاة الشيعة بالتمرد على سنة رسول الله ﷺ !

وعن المسور بن مخرمة قال : « كان عمر بن الخطاب ، وهو صحيح ، يُسأل أن
يَسْتَخْلَفَ فَيَأْتِي . فصعد يوماً المنبر فتكلم بكلمات وقال : إن مت فأمركم إلى
هؤلاء الستة الذين فارقوا رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ : علي بن أبي طالب ،
ونظيره الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ونظيره عثمان بن عفان ، وطلحة
بن عبيد الله ونظيره سعد بن مالك . ألا إنني أوصيكم بتقوى الله في الحكم ،
والعدل في القسَم » . (٢)

وقد أوردت وصيته الأخيرة بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي فيما سبق ؛ وليس
بين الصيغتين اختلاف إلا في ترتيب الأسماء الستة فقط . وهذا لا يفيد شيئاً من
حيث المضمون . (٣)

● ابن عوف يستشير

وقد اتفق الستة على أن يكون لعبد الرحمن بن عوف حق إعلان مَنْ يقع
عليه اختيار الأغلبية على أن يتنازل عن حقه في الترشيح للخلافة : « فيذكر أنه
سأل مَنْ يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم فلا يشير إلا بعثمان بن عفان ،
حتى أنه قال لعلي : أرايت إن لم أولئك ، بمن تشير به علي ؟ قال بعثمان .
وقال لعثمان : أرايت إن لم أولئك بمن تشير به علي ؟ قال : بعلي بن أبي طالب » .
ثم نشط عبد الرحمن بن عوف يستشير الناس فيهما (علي أو عثمان) ، ويجمع
رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم (قاداتهم) ، جميعاً وأشتاتاً ، مثني ،
وفرادى ومجتمعين ، سراً وجهراً ، حتى خُلصَ إلى النساء المخدرات في حجابهن ،
وحتى سأل الولدان في المكاتب ، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ؛ ج ٢ ص ٣٧١

(٢) طبقات ابن سعد ؛ ٢ / ٦١٨

(٣) فتح الباري ؛ كتاب فضائل الصحابة ؛ رقم ٣٧٠٠ - ٧ / ٦١

المدينة ، فى مدة ثلاثة أيام بلياليها ، فلم يجد اثنين يختلفان فى تقديم عثمان بن عفان ، إلا ما يُنقل عن عمار بن ياسر والمقداد ، أنهما أشارا بعلي بن أبى طالب ، ثم بايعا مع الناس .^(١)

ولم يقبل «علي» بنتائج استطلاع عبد الرحمن بن عوف ، واتهمه بالتحيز لعثمان لرابطة مصاهرة كانت بينهما .^(٢)

وأنا لا أشك فى أمانة عبد الرحمن بن عوف ، وإن لم أُصدّق أن الأغلبية «الكاسحة» اختارت عثمان ! ثم ما دخل الصبيان بالخلافة؟! أجل لقد فاز عثمان ابن عفان حقاً بالأغلبية . والسبب فى اعتقاده هو فرق السن ، أو «المشيخة» التى كان لها وزنها الكبير عند عامة العرب قبل الإسلام وبعده . فالرجلان يتساويان فى الصُّحبة والسُّبق إلى الإسلام . ولقد حزن «علي» لذلك وردّه إلى تحيز عبد الرحمن بن عوف وإلى ظلم قريش له .^(٣) لكن الجماهير القرشية الغفيرة التى هُرعت إلى بيته لتباعه بعد مقتل عثمان ، والأعداد الكبيرة من الصحابة الذين قاتلوا معه ضد معاوية ، كل ذلك يثبت براءة عبد الرحمن بن عوف من التحيز ، وينفى ظلم قريش لفتاها البطل ، النبيل ، الشريف ، علي بن أبى طالب . وما كلمات «علي» هنا إلا تعبير عن شعوره بالصدمة !

ويعزو البعض تقديم عبد الرحمن لعثمان إلى اشتراط علي شرطاً ، وقبول عثمان دون شرط .

● علي يشترط

فقد سأل عبد الرحمن علياً وهو على المنبر فقال : هل أنت مُبايعي علي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبى بكر وعمر؟ فقال علي : اللهم لا ، ولكن علي (قَدْر) جهدى من ذلك وطاقتى ، وسأل عثمان السؤال نفسه فقال : اللهم نعم . فأعلن عبد الرحمن البيعة لعثمان .

(١) ابن كثير البداية والنهاية ؛ ١٣٨/٧

(٢) نفسه ؛ ١٣٩ / ٧

(٣) نهج البلاغة ؛ رقم ٢١٥ ص ٢٩٥

(٦٤ - الشيعة والسنة)

والحق أن اشتراط «علي» بدهية إسلامية ؛ وهو - كما يبدو - كان يخشى ألا يَفِي بما شرطه عبد الرحمن . وأين ذلك الذى يستطيع الالتزام التام بالكتاب والسنة وعمل أبى بكر وعمر؟! والذى حدث فعلا أن عثمان لم يستطع الوفاء بذلك الشرط ! فقد كان أبو بكر يأتى أن يصعد إلى الدرجة العليا من منبر رسول الله ﷺ ، ويتوقف عند الدرجة الأدنى منها . وكان عمر يتوقف عند الدرجة الأدنى من الدرجة التى كان أبو بكر يتوقف عندها . لكن عثمان قال : «إن هذا يطول» . ثم إنه زاد فى الأذان الأول يوم الجمعة قبل الأذان الذى كان يؤذن به بين يدي رسول الله ﷺ إذا جلس على المنبر» (١) وأنا أقول إن عثمان كان على حق حين وقف على درجة عمر ، لأن النزول عنها كان يعنى الوقوف على الأرض! وزيادة أذان اجتهاد خاطئ منه رضى الله عنه ؛ لكنه ربما رأى فى ذلك مصلحة شرعية ، لا تتعارض مع الشرط الذى قبله .

ولابد أن نفهم موقف «علي» من شرط عبد الرحمن بن عوف . فقد كان النبى ﷺ يبايع الناس على السمع والطاعة ، ثم يقول : «فيما استطعت» وقال مرة : «فليقل أحدنا : فيما استطعت» (٢) وهكذا نفهم قوله : «اللهم لا ، لكن على جهدى من ذلك وطاقتى» فهو احتراز من عدم القدرة .

ويمكن القول إن التشيع السياسى لعلي بدأ منذ ذلك اليوم الذى اعتلى فيه عثمان منصب الخلافة ، وهو يوم أول محرم سنة ٢٤ هـ . لكن الاتفاق بين الرجلين ظل غالباً طوال الأعوام الاثنى عشر - مدة خلافة عثمان - ولم تظهر الشيعة كفرقة فى ذلك الوقت المبكر .

● بوادر التشيع لعلي

يقول ابن تيمية: «إن الشيعة المتقدمين الذين صحبوا علياً ، أو كانوا فى ذلك الزمان ، لم يتنازعوا فى تفضيل أبى بكر وعمر ، وإنما كان نزاعهم فى تفضيل علي وعثمان . وهذا مما يعترف به علماء الشيعة الأكابر من الأوائل والأواخر» (٣)

(١) ابن كثير السابق ؛ ٧ / ١٤٠

(٢) الفتح الربانى ؛ الباب السابع فيما جاء فى البيعة - رقم ١٠٩ - ٢٣ / ٤٩ ؛ وفتح

البارى ؛ كتاب الأحكام ؛ رقم ٧٢٠٢ - ١٣ / ١٩٣ ؛ موطأ مالك ؛ كتاب البيعة ؛ ص ٦٠٨

(٣) منهاج السنة النبوية ؛ ١ / ٣ - ٤

وقد كانت مناقب عثمان هي التي أهلتته عند عمر ليرشحه ضمن السُّنة . وأبرز خصائصه الشخصية الإنفاق السَّخي الباهظ في سبيل الإسلام . وقد قال النبي ﷺ يوماً : « مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ » . فجهزه عثمان . (١) وجيش العُسرة هو الذي أنيطَ به غزو تبوك . وتختلف الأخبار حول المبلغ الذي قدمه عثمان ، فيقال إنه ألف دينار ، ويقال عشرة آلاف ، وثلاثمائة بغير . وقال النبي ﷺ يوماً : « مَنْ يَحْفَرُ بِرُومَةٍ مَنَهُ الْجَنَّةُ » . فحفرها عثمان . (٢)

وهذا الإنفاق الباذخ في سبيل الإسلام والمصالح العامة للأمة هو من الخصائص المهمة التي تؤخذ في الحسبان عند الترشيح لمنصب الخلافة ، وهي التي رجحت ترشيح عثمان عند عمر بن الخطاب ، ورجحت تقديمه لمنصب الخلافة عند من قدموه على « علي » . ولا ريب أن الجهاد بالمال لا يقل عن الجهاد بالنفس . ولم يُعرف عن « علي » أنه كان ثرياً قبل أن يُصبح أميراً للمؤمنين ، وإن تفوق في ميادين القتال ! ونال عثمان شرف الإصهار إلى النبي ﷺ ، وتزوج من ابنتيه - رقية - التي توفيت يوم بدر - وأم كلثوم ، رضي الله عنهما . وهذا يدل على تقدير النبي لعثمان ، علاوة على أخبار أخرى تؤكد هذا ، وتذكر كتب السُّنة الصحيحة العديد من مناقب عثمان ، لكنها في حسابي لا تحسب في ميزان الترجيح لمنصب الخلافة .

أصبح عثمان رضي الله عنه خليفة . وكان عليه أن يعلن على الناس المبادئ التي سيسير عليها في حكمه . وهذا هو ما بدأ به .

● خطبة عثمان الأولى بعد البيعة له

يقول الطبري رحمه الله : « إنه لما بايع أهل الشورى عثمان ، خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله ﷺ ، فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، وقال : إنكم في دار قُلعة (أي على رحلة) ، وفي بقية

(١) فتح الباري ؛ كتاب فضائل الصحابة ؛ ٣٦٩٥ - ٧ / ٥٢

(٢) نفسه ٧ / ٥٤ - رقم ٣٦٩٥ - ٣٦٩٨

(٣) نفسه ؛ ٧ / ٥٢

أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتم ، صَبَّحْتُمْ أو مُسَّيْتُمْ .
ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .
اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغفل عنكم . أين أبناء
الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها ومُتَّعوا بها طويلاً ؟ ألم تَلْفِظْهُمْ ؟ ارموا
بالدنيا حيث رَمَى اللهُ بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، وللَّذِي هُوَ
خير ، فقال عز وجل ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥] (١)

ثم أقبل الناس يبايعونه

ومن الجلي أن الخليفة الثالث كان حزيناً ، شديد الكآبة ، لمقتل الخليفة
العظيم الذي سبقه - الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وهو يشعر
بجسامة المسؤوليات التي عليه أن ينهض بها ، فى دولة واسعة مترامية الأطراف ، لا
تزال تتعرض لهجمات الروم وقلول الفرس وانتقاض بعض البلاد فى مصر وإفريقية
(تونس) . فلم يكن منصب الخليفة مغنماً ، يطمع فيه أهل الدنيا وطلاب الثراء
والسلطان والشهوات ، بل كان تكليفاً بالجهاد والتضحية والصبر والمصابرة ،
والمخاطرة بالحياة . وهذا جثمان الخليفة الثانى فى قبره لم يبرد بعد ، وقد راح
شهيداً بيد مجوسى موتور مجرم .

● رعاة لا جباة

وكتب عثمان إلى عماله فى أقاليم الدولة ، والذين يحكمونها باسم الخليفة
فقال : « أما بعد ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا دعاة ، ولم يتقدم إليهم أن
يكونوا جباة . وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة . وليوشكن
أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة
والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم

(١) تاريخ الطبرى ؛ ج ٤ أخبار سنة ٢٤ هـ ص ٢٤٣ .

فتعطوهم ما لهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ؛ ثم العدو الذى تتنايون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء» .

وهذه قواعد دستورية إسلامية تكشف عن رسالة الإسلام السامية . فلم يجاهد المسلمون لفتح ما فتحوا للاستغلال والنهب والسلب والظلم . كلا ، إنهم رعاة ، لا جباة . همهم الإصلاح والفلاح ، لا جمع الأموال . ثم يحذر الخليفة الثالث عماله من خطورة التحول عن مبادئ الإسلام الرفيعة فينقلبوا إلى جُباة ، فإن ذلك سيجلب ذهاب الحياء والأمانة والوفاء . ثم يطالبهم بالعدل مع الرعية ، ومع أهل الذمة ، وبالأعداء ، وينصح عماله بأن النصر على الأعداء يتأتى من الوفاء لهم بالعهود .

● على نهج عمر

ويهدد عثمان أمراء الأجناد الذين يحرسون حدود البلاد ومدخلها ويقول : «أما بعد فإنكم حُماة المسلمين وذآدتهم . وقد وضع لكم عمر ما لم يرغب عنا ، بل كان على ملأ منا . ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ! فانظروا كيف تكونون ! فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه» .

وكتب أول كتاب له إلى عمال الخراج فقال : «أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق . فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم» .^(١)

لقد تعهد عثمان بالسير على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ،

(١) تاريخ الطبرى ؛ أخبار سنة ٢٤ هـ ج ٤ ص ٢٤٥

وعلى أساس ذلك التعهد قدّمه عبد الرحمن بن عوف على «على». وتلك تبعة جسيمة ، فكان حقاً عليه أن يكتب ؛ وها هو يشدد على عماله وقادته باتباع ما كانوا عليه في عهد عمر ، دون تغيير أو تعديل ، وينذرهم بالعزل إذا غيروا . ويلاحظ أن العزل كان كثيراً في عهد عثمان ، مع أنه كان لا يعزل إلا عن شكاة أو استعفاء . (١)

● الفتح في عهد عثمان

وتواصلت حركة الفتح في عهد عثمان . فبعض البلاد التي سبق فتحها في عهد عمر انتقضت ، فأعاد عثمان فتحها ، كما حدث في الإسكندرية . وكذلك أعيد فتح أذربيجان ، وتوسعت جيوش المسلمين إلى ما وراءها . وفتحت إفريقية (تونس) ، سهلها وجبلها ، واجتمع أهلها على الإسلام وحسنت طاعتهم . وتم فتح قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان بأمر عثمان سنة ٢٧ هـ وكان في الجيش جماعة من أصحاب النبي ، فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ، وزوجته أم حرام ، والمقداد وأبو الدرداء وشداد بن أوس .

وفي سنة ٢٦ هـ زاد عثمان في المسجد الحرام ووسّعه وابتاع من قوم ، وأبى آخرون فهدم عليهم بيوتهم ، ووضع أثمانها في بيت المال ، فصيحوا بعثمان ، فأمر بحبسهم وقال : أتدرون ما جرأكم عليّ ؟ ما جرأكم عليّ إلا حلمي ! قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا عليه . ثم أخرجهم من الحبس .

وفي سنة ٢٩ هـ وسّع عثمان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله . وكانت الحجارة تُحمل من «بطن نخل» . وقد استخدمت الحجارة المنقوشة في البناء . ووضع الرصاص في الحجارة التي بنيت منها الأعمدة . وجعل طوله مائة وستين ذراعاً وعرضه مائة وخمسين ذراعاً ، وأبقى أبوابه الستة على ما كانت عليه في عهد عمر .

وهاجمت الروم المسلمين بجموع عظيمة ، فاستغاث معاوية والي الشام

(١) تاريخ الطبري ؛ أحداث سنة ٢٤ ج ٤ ص ٢٥٣

بعثمان فأمدّه بجند من الكوفة في ثمانية آلاف ، فانضموا إلى إخوانهم الشاميين ، وهزموا الروم شر هزيمة وملأوا أيديهم من الغنائم ، وافتتحوها حصوناً كثيرة .

● الرعية تنتقد الخليفة

وقد أخذ كثير من أفراد الرعية مأخذ على عثمان وعماله أواخر أيامه .

١- أخذوا عليه أنه أتم الصلاة في السفر . ورد عليهم شارحاً موقفه فقال إنه قدِمَ بلداً فيه أهله ، فما يحتم عليه الإتمام أتباعاً للسنة .

٢- وقال نُقاده : حَمَيْتَ حَمِيًّا . (أى خصص أراضٍ) . وأنكر ذلك إنكاراً تاماً .

٣- وقال بعضهم : كان القرآن كُتِبَ فتركتها إلا واحداً . فرد عليهم بقوله : ألا وإن القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنه تابع لما أجمع عليه الصحابة وثبت تواتره . وكانت تلك مفخرة لعثمان رضي الله عنه . (١) .

٤- وأخذ عليه البعض أنه أعاد «الحكم» (الذي طرده النبي ﷺ) إلى عمله ، فقال إن النبي ﷺ هو الذي رده إلى عمله قبل وفاته .

٥- وقالوا : استعملت الأحداث ، أى الشباب ؛ فقال إن الرسول ﷺ استعملهم .

٦- وقالوا إنه أعطى ابن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه ، فقال إنه لم يعطه إلا الخمس ، فبلغ مائة ألف .

٧- وقالوا إنه يعطى أهل بيته ، فقال إنه يعطيهم من ماله ، لا من بيت المال .

٨- وأخذوا عليه سوء توزيعه للأراضى ، فبيّن أنه اتبع الشرع ولم يظلم . (٢)

وكان سوء تصرف عمال عثمان على الأقاليم وعدم استجابته لشكاوى

(١) الرد العلمي على هذا الادعاء الخطير سيأتي بعد هذا الفصل مباشرة .

(٢) تاريخ الطبرى ؛ المجلد الرابع ؛ ص ٣٤٦ - ٣٤٨

الرعية وإصراره على إبقائهم هو السبب الرئيسي للثورة . وكانت بطانة عثمان غير مخلصه ، بل فيها عناصر فاسدة مثل «مروان بن الحكم» . ولم يُصنح عثمان لنصح علي بن أبي طالب ، واستجاب لنصح معاوية بن أبي سفيان ! (١)

● حوار علي وعثمان

ويبين الحوار التالي المآخذ التي رآها عليُّ على تصرفات عثمان :

قال علي : إن عمر بن الخطاب كان كلُّ مَنْ وُلِّيَ فيما يطا على صماخه ! إن بَلَّغَهُ عنه حرفٌ جَلَبَهُ ، ثم بلغ به أقصى الغاية ! وأنت لا تفعل . ضعفتَ ورفقتَ على أقربائك !

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً .

قال علي : لَعَمْرِي إنَّ رَحِمَهُمْ مِنِّي لقريبة ، ولكن الفضل في غيرهم !

قال عثمان : هل تعلم أن عمر وُلِّيَ معاوية خلافتَهُ كلها ؟ فَقدَ وُلِّيته !

قال علي : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوفَ من عمرٍ من «يرقأ» -

غلام عمر منه ؟ !

قال عثمان : نعم .

قال علي : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس :

هذا أمر عثمان ! فَيَبْلُغُك ولا تُغَيِّرُ علي معاوية . (٢)

هذه هي نوعية الأخطاء الكبيرة التي تفاقمت في نهاية عهد عثمان والتي

أدت إلى الثورة عليه وانتهت بقتله ، رضی الله عنه (في ذى الحجة سنة ٣٥ هـ)

وقد قاد الثائرين : عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر الكندي ،

وعمر بن الحمق الخزاعي ، ومالك الأشتر ، وحكيم بن جبلة العبدى . وعَرَضُوا علي

(١) تاريخ الطبرى ؛ المجلد الرابع ؛ ص ٣٣٤

(٢) نفسه ؛ ٣٣٨

عثمان : أن يخلع نفسه ، أو يقتص من نفسه ، أو يقتلوه . (١) فرفض عرضهم ، فقتلوه ، رضى الله عنه .

ولما حاصروا عثمان في بيته بعث إلى «علي» ، لكنه لم يجبه ! ولما علم علي بقتله قال : «اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلته أو مالات علي قتله» . (٢) لكنه أتهم بإيواء قتلة عثمان بعد أن بُوع للخلافة . واعترف بأنه لم ينصره . (٣)

● عثمان يجمع القرآن المتواتر في مصحف واحد

وهذا هو الرد العلمى على قول البعض لعثمان : كان القرآن كتباً . فتركها إلا واحداً .

● أبو بكر الصديق يأمر بجمع القرآن :

لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى والقرآن الكريم مُسجل مكتوب كله ؛ لكنه لم يكن مجموعاً لدى أحد ؛ وفي هذا أخرج البخارى في صحيحه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « أرسل إليّ أبو بكر الصديق ، مَقْتَل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استُحِر يوم اليمامة بقراء القرآن ؛ وإنى أخشى إن استُحِر القتلُ بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ؛ وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلتُ لعمر : كيف نفع شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ؛ ورأيتُ ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب ، عاقل ، لا تنتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ . فَتَتَبِع القرآنَ فَاجْمَعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرنى به من جمع القرآن . . فتتبع القرآن أجمعه من العُسب ، واللخاف ، وصدور الرجال ؛ حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ؛ ٢ / ٦٣٤

(٢) نفسه .

(٣) نهج البلاغة ؛ رقم ٣٠ ص ٥٦

أبى خزيمه الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره - لكنها كانت محفوظة في المكتوب، وكان زيد يحفظها ، أى أن شرط التواتر كان متوفراً - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة «فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها» (١) .

ويذكر عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب قام فقال : «مَنْ كَانَ تَلَّقَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ، فَلْيَأْتِ بِهِ» . وكان زيد بن ثابت يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ولا يجمع آية إلا بشهادة شاهدين . فكان يباليغ في الاحتياط ، ولا يكتب إلا إذا تطابق المحفوظ والمكتوب كلية (٢) . وهكذا توقف عن تسجيل آيتين من سورة «براءة» وآية من سورة «الأحزاب» إلى أن تطابق المحفوظ والمكتوب ، أو بحسب ألفاظ زيد نفسه : العُسْبُ واللُّخَافُ وصدور الرجال . (٣) وانتهت مهمة «زيد» الكبرى بتشكيل نسخة مكتوبة ، متواترة ، كاملة ، وإيداعها عند الخليفة . وبذلك وُضِعَ حد نهائى للمخاوف من أن يضيع شيء من القرآن الكريم . واستمر هذا الوضع طوال عهد أبى بكر ، وعهد عمر ، وسنوات من عهد عثمان ، رضى الله عنهم ، ولم يستجد شيء إلا فى سنة ٢٤ للهجرة على وجه التقريب حين امتدت الدولة الإسلامية إلى أذربيجان وأرمينية .

● عثمان يأمر بنسخ المصحف

بانتشار الإسلام وامتداد دولته إلى العراق والشام ومصر وفارس ، انتشر القراء فى الأقاليم ، يعلمون الناس الإسلام ، ويقرئونهم القرآن . وحدث نزاع بين بعض المسلمين حول القراءة الصحيحة ، كما حدث بين «عمر» و «هشام» وتمسك كل منهم بالقراءة التى سمعها وتعلمها .

حدث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : «إِنْ حُذِيفَةَ بِنِ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ ، وَكَانَ حُذِيفَةَ يَغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِى فَتْحِ أَرْمِينِيَّةِ وَأَذْرَبِيْجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ

(١) فتح الباري ؛ حديث رقم ٤٩٨٦

(٢) فتح الباري شرح الحديث رقم ٤٩٨٨ - ج ٩ ص ١٣ - ١٥

(٣) قارن الحديث رقم ٤٩٨٨

(سنة ٢٤ هـ) ، فَأَفْزَعَ حُدَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ . فَقَالَ حُدَيْفَةُ لِعِثْمَانَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ! فَأَرْسَلَ عِثْمَانَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصَّحْفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ . فَأَرْسَلَتْ بِهَا « حَفْصَةَ » إِلَى عِثْمَانَ ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ . وَقَالَ عِثْمَانَ لِلرُّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ : إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْكَبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ . فَفَعَلُوا ؛ حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصَّحْفَ فِي الْمَصَاحِفِ ، رَدَّ عِثْمَانَ الصَّحْفَ إِلَى « حَفْصَةَ » . فَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ (إِقْلِيمٍ) بِمَصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا . وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ « الْقُرْآنِ » فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مَصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ . « (١) لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ قِرَاءَاتٍ تَفْتَقِرُ إِلَى التَّوَاتُرِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ قِرْآنًا .

وكانت القراءات التي أثارت النزاع من النوع الذي ورد في سورة الفرقان ؛ وهي اختلافات يسيرة في القراءات ؛ لكن المسلمين لم يكونوا يطبقونها ، ظناً منهم أنها تغيير في كتاب الله ، أو خطأ ؛ وربما لم يعرف كثير منهم بإجازة النبي ﷺ لقراءات عديدة . بل إن معلمى القرآن في المدينة المنورة ذاتها اختلفوا في القراءات ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب فقال : « أنتم تختلفون عندي ؛ فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافًا . » (٢)

لذلك كله شكل عثمان لجنة لنسخ المصحف الذي كان قد جُمِعَ في عهد أبي بكر ، في صحائف من الجلد . ولم تقتصر اللجنة على الثلاثة المذكورين ، بل ضُمَّت ستة آخرين ، لأن المهمة ضخمة ، وهم : أبي بن كعب ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس ، وكثير بن أفلح ، ومالك بن أبي عامر ، وعبد الرحمن ابن الحارث . (٣) وانتهت اللجنة بكتابة نسخة كاملة في هيئة كتاب ضخمة أوراقه من الجلد وبعد ذلك تم نسخها وإرسالها إلى الأقاليم .

(١) فتح الباري ؛ رقم ٤٩٨٧

(٢) نفسه ؛ رقم ٤٩٨٦ ، ٤٩٨٨

(٣) نفسه ؛ ج ٩ ص ١٨ - ١٩

وهكذا صار بين أيدي المسلمين فى كل إقليم نسخة من المصحف يمكن الرجوع إليها عند اختلاف القراءات . وأعيدت النسخة الأصلية إلى « حفصة » . وأما ما كان بأيدي المعلمين وتلاميذهم من « صحف » مخالفة للصيغة المتواترة المكتوبة فلم تكن تستحق اسم القرآن ؛ وكان لابد من التخلص منها ، منعاً لإدخال قراءات غير متواترة فى القرآن ، فأمر بحرقها .

فالذى أحرق قراءات غير متواترة ؛ ولذلك لا تسمى قرآناً .

والحق أن عمل لجنة عثمان لم يكن يبتغى تحريم التعدد فى القراءات . فذلك أمر أجازه النبي ﷺ بإذن من ربه سبحانه وتعالى . وكلنا يعلم أن القراءات السبع شرعية ؛ وهى لا تزال موجودة إلى اليوم . ولم يكن لعثمان أو لغيره أن يحرم ما أحل الله ورسوله . ولكن عمل عثمان كان غرضه إبقاء القراءات الشرعية فقط ومنع القراءات الخاطئة غير الشرعية . وكذلك إعطاء الأولوية لقراءة واحدة ، يبدأ بها التلاميذ ، وتستقر على ألسنتهم ، وتذيع بين العامة ؛ ولا بأس بعد ذلك من دراسة القراءات الأخرى وممارستها على المستوى العلمى الرفيع . فذلك أدعى لمنع الاختلافات والمنازعات بين العوام والصبيان والمعلمين ، فى وقت كان المسلمون فيه يقاتلون فى جبهات عديدة ، ويحتاجون إلى الوحدة الصلبة . وهذا هو الوضع الذى نُقل إلينا بالتواتر ، والذى تمارسه اليوم فى كل مكان .

ولقد كان يجب إحراق النسخة الأولى التى كانت لدى « حفصة » ، بعد أن نُسخت ، ووجعت حرفاً حرفاً ، واختيرت قراءة واحدة لتكون هى الأساس المعتمد فى النسخة الجديدة . لكن عثمان رضى الله عنه برُّ بوعده « حفصة » بإعادة النسخة إليها . ولم يكن ضرر من وجودها لأن أحداً لم يكن يقرأ فيها بعد نشر مصحف عثمان . وقد بقيت إلى العهد الأموى حين أخذها « مروان » أمير المدينة ، بعد وفاة « حفصة » وغسل الكتاب التى كانت على الحجارة والجريد ، وأحرقه .

ومن هذا نرى بوضوح أن كل الجهود منذ بداية الوحي إلى وقت نسخ مصحف عثمان كانت كلها تُبذل لصيانة القرآن الكريم بحيث لا يضيع منه حرف

ولا يضاف إليه حرف ، امتثالاً لأمر النبي ﷺ : « أمحضوا كتاب الله ! » ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

[فصلت: ٤١-٤٢]

فكان جمع القرآن المتواتر في مصحف واحد من الأعمال المجيدة التي تحتسب لعثمان رضى الله عنه ولجماعة الصحابة العظام الذين قاموا بتلك العملية الخطيرة .

● أمودج لمفتريات الشيعة على عثمان

هذا هو الخليفة الراشد الثالث رضى الله عنه . وتلك أعماله وإنجازاته الكبيرة . فكيف يتحدث عنه غلاة الشيعة ؟ هل ينقدونه بموضوعية ؟

لا للأسف ؛ إنهم يفترون عليه ما لا يصدقه عقل إلا عقولهم الملتائة ؟

وهم ينسبون هذه الافتراءات إلى ابن عباس، وهو منها براء، فيقولون: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم وآله المدينة أعطى علياً وعثمان أرضاً ، أعلاها لعثمان وأسفلها لعلي رضى الله عنه فقال علي لعثمان : إن أرضى لا تصلح إلا بأرضك فاشتر منى أو بعنى . فقال له :أبيعتك . فاشترى منه علي . فقال له أصحابه : أى شىء صنعت ؟ بعثت أرضك من علي وأنت لو أمسكت عنه الماء ما انبتت أرضه شيئاً حتى يبيعتك بحكمك ؟ قال : فجاء عثمان إلى علي فقال له : لا أجزى البيع . فقال علي له : بعثت ورضيت وليس لك ذلك . قال : فاجعل بيننا وبينك رجلاً . قال علي : النبي صلى الله عليه وسلم وآله . فقال عثمان : هو ابن عمك ! ولكن اجعل بينى وبينك غيره ! فقال علي : لا أحاكمك لغير النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، والنبي شاهد علينا . فأبى ذلك ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ (تعالى) : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

[النور: ٤٧]

إلى هذا الحد من الإسفاف انحط المؤلف الشيعى ! فالقصة مستحيلة فقهاً ، لأن البيع تم ، وبالتراضى ، فلا رجوع فيه . فكيف قبل علي الاحتكام فى المسألة؟

وهل يعقل أن يرفض عثمان الاحتكام إلى النبي ؟ ! هل كان عثمان يخشى
حيف النبي لأنه ابن عم علي ؟ ألم يكن النبي صهر عثمان أيضاً ؟ وكيف يؤمن
عثمان بنبوة محمد ولا يثق في عدالته ؟ !

بعد هذا الهراء السخيف يقول المؤلف الشيعي : « فانظروا يا معشر المسلمين
إلى رجل لا يرضى بحكومة النبي الذي كان ﷺ مجسمة العدل والإنصاف ! فأين
تذهبون يا أهل السنة والجماعة ؟ » (١)

(١) المجلسي ؛ بحار الأنوار ؛ ج ٢٤ باب ٦٧ ص ٣٦٣